

كيف بدأ الكتابُ

لفضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ
حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونية (١)

الشيخُ لم يراجع التفريغ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم، وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.
أما بعد ..

فإني أحمد الله تعالى أن هيا لنا أسباب الخير، وأعاننا على سلوكها، والالتزام ها.
ثم أحمده سبحانه على أن حصل هذا الجمع الطيب في هذا المهرجان الذي يُشكر من تفاعل معه؛
لأجل أهمية القراءة وضرورتها للإنسان بعامة وللمسلم بخاصة.
ولا غرو فإن أول ما أنزل من القرآن الكريم ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (١) الآيات، لهذا فإني أجدني
مقودا إلى مثل هذا اللقاء، ومثل هذه المحاضرة لأسباب عدة:

الأول منها أن التكامل والتعاون واجب من واجبات الشريعة، الله جل وعلا قال لعباده: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى
الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]. ولا يعلم المسلم أين الخير الكامل فيما يتعاون فيه مع
إخوانه، ولذلك كان التعاون مطلوباً بغض النظر عن ما يقدره الإنسان من قوة هذا الموضوع أو من أثره،
فإن الأثر بيد الله تعالى.

ولذلك فإن الحرص على التعاون فيما ينفع الإنسان المسلم هذا مطلب، فإذا تعاوننا جميعاً على
تعليمه وتثقيفه وإدراكه للعلوم الإلهية، ثم للعلوم الدنيوية النافعة، فإن في هذا تعاوناً على البر والتقوى.
السبب الثاني أن الحرص على الكتاب حرص على العلم لأن العلم النافع بل كل أنواع العلوم إنما
تأتي من جهة القراءة، والإعلام هو فرع عما يُقرأ:
أولا يكتب، ثم يقرأ، ثم يصاغ مرثياً أو مسموعاً.. إلى آخره.

فالقراءة والكتاب ضرورة واليوم يلحظ عزوف عن الكتاب وعن القراءة وعن التفاعل مع الكتاب،
ومعنى ذلك أن هذا عزوف عن العلم النافع، وعزوف عن الثقافة النافعة، وعزوف عن إدارة الإنسان
لنفسه، فإن إدارة الذات أيضاً مطلوبة، ومن معالم إدارة الذات أن يحرص على تعليم الإنسان نفسه،
وعلى تثقيفها، وطريق ذلك القراءة، ونجد أن القراءة اليوم قد تكون للجرائد والمجلات بصفحات
كثيرة، قد يرى المرء كتاباً ويقول: كيف أقرأ كتاباً مائة صفحة بينما هو في تصفحه للجرائد والمجلات
يجد أنه يقرأ خمسين صفحة أو أكثر؛ ولكن ما نوع القراءة وما طريقتها.

واليوم هناك علوم تقول إن القراءة تكون قراءة سريعة، كما أنها تكون قراءة متأنية، فهناك موضوعات
حتى في الكتب تقرأ سريعاً ولا يلزم أن تقرأ الكتاب كله.

السبب الثالث أن بيني وبين الكتاب عشقاً ومحبة طويلة الأمد منذ كنت صغيراً، وحرصت على
الكتب، وأحببت الكتاب؛ حتى إنه في مكان نومي لا بد أن يوجد مجموعة كبيرة من الكتب، ولو لم أقرأ
بس فقط لأنظر إليها، هذا يعرفه الذي يهوى شيئاً ما، ويولع به؛ فإنه يجد أن بينه وبينه محبة وصلة

وتواصل يجعله لا يكاد يرضى بمفارقته، والكتاب عنصرٌ من العناصر المهمة في الحياة في تقويم الإنسان نفسه، وبازدياد معارفه، وفي صلته بربه جل وعلا.

السبب الأخير أن أعظم الكتب الأخير مكانا لكنه الأول منزلة أن أعظم الكتب هو القرآن الكريم، ومن عزف عن قراءة الكتب فقد يعزف عن قراءة القرآن العظيم، ومن أحب قراءة القرآن فإنه يحب القراءة، والأمر مرتبط بشيء ما بين هذا وهذا.

لذلك أحببت أن أشارككم وأشارك المنظمين لهذا المهرجان، ولهذا التفاعل الثقافي في هذا المجمع المبارك إن شاء الله تعالى أن أشارككم في هذا الموضوع إحساسا مني بالواجب ثم صلة علمية بيننا فيما نحب أن تكون فيه الصلة.

الموضوع عن الكتاب، والكتاب من حيث هو سُمي كتابا؛ لأنه جُمعت فيه الصحف أو الكلمات؛ إما أن يكون جمع الكلمات فيسمى كتاب، وإما أن تكون جمع لأوراق وصحف فيسمى كتابا؛ لأن مادة كتاب بمعنى مجموع، فكلمة كتب يعني جمع، والكتيبة سميت كتيبة لأنها تجمع الناس الكثير، والكتاب سمي كتابا لأنه يجمع الكلمات والحروف وينظمها في سلك واحد، والكتاب أيضا سمي بذلك لأنه يجمع الكلمات ويجمع الصحف.

لهذا قبل أن يجمع القرآن في مصحف واحد سَمَّاه الله جل وعلا كتابا، فقال جل وعلا في فاتحة سورة البقرة: ﴿الَمْ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ و﴿ذَلِكَ﴾ إشارة، وإشارة باللام التي تدل على البعد هذا ذا هذا إشارة اسم الإشارة، واللام تدل على البعد، والبعد هنا بعد حسي وبعد معنوي:

أما البعد الحسي فهو أنه إشارة إلى أن القرآن سيجمع في كتاب بعد حين، وكما هو معلوم أن الذي جمع القرآن بعد وفاة النبي هو أبو بكر الصديق -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، ثم جمع الجمع الكبير في عهد عثمان -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أجمعين-.

وأما البعد المعنوي فإن الإشارة في الشيء باللام التي تدل على البعد المعنوي تدل على رفعة المنزلة وعلو الشأن وعظم المكانة.

وهذا وهذا هو في القرآن العظيم، ولذلك القرآن يسمى كتابا باعتبار كتابته، ويسمى قرآنا باعتبار أنه يتعبد بقراءته، ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ [الحجر]، هناك بعض الباحثين المعاصرين كتب في أن القرآن غير الكتاب، وقال: إن الكتاب والقرآن غير الله بينهما في قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ فمعناه أن الكتاب شيء والقرآن شيء آخر، ولكن هذا غلط من جهة اللغة، ومن جهة الحقيقة الشرعية؛ لأن القرآن هو الكتاب، فإذا نظر إلى كونه مقروءا متعبدا بقراءته وتلاوته فيسمى قرآنا، وإذا نظر إلى كونه مجموع الأوراق فيسمى كتابا، وإذا نظر في أنه من صحف يسمى مصحفا.. وتعدد الأسماء تدل على شرف المسمى وعلى علو صفاته وتنوعها.

العرب لم يكونوا يعرفون الكتاب من حيث هو مجموع فيه موضوعات، وإنما ابتدأت معرفتهم بالكتاب بالقرآن العظيم، ولذلك كانت سمة القرن الأول الهجري أن الكتابات التي يكتبها الناس تكون

في ورق، أو في صحف؛ في جلد.. أو ما أشبه ذلك، أو في عظام؛ يجمعونها في عظام الإبل إذا وكلت العظم يغسلونها وتكون بيضاء ويكتبون فيها ثم تجمع.

في عهد النبي ﷺ كان إذا نزل شيء من القرآن قال: اكتبوه، فيكتب بعضه في جلد وبعضه في عظام وبعضه في كذا وجمعت في صندوق يسمى صندوق المصحف عند عمود في المسجد النبوي معروف إلى الآن يقال له في ذلك الوقت: اسطوانة المصحف.

ثم لما جاء في عهد أبي بكر الصديق جمعت ورتبت كما هو معلوم بحسب العرصة الأخيرة التي عرض فيها النبي ﷺ القرآن على جبريل عليهم السلام في السنة الأخيرة قبل وفاته -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-.

ابتدأ العلم بالصحف والكتابة وكيف تكتب، فكتبت أحاديث النبي ﷺ ثم كتبت بعض الخطب، ثم كتبت بعض الأوامر الأميرية من أمير المؤمنين أو من الخلفاء والرسائل وإلى آخره جمعت إلى أن وصل إلى نهاية القرن الأول فأمر عمر بن عبد العزيز بجمع السنة، وأمر بذلك محمد بن شهاب الزهري عالم السنة المعروف فجمع كثيرا من السنة من الناس -من الصحابة والتابعين الذين نقلوا عن الصحابة- وكتب ذلك في صحف.

وابتدأت حركة تدوين العلم المتصل بالقرآن، أو المتصل بالسنة، في كتب، في صحف تجمع. ثم تنوعت في القرن الثاني الهجري اهتمامات العلماء فمنهم من يهتم باللغة العربية، ومنهم من يهتم بالتاريخ، ومنهم من يهتم بالسيرة، ومنهم من يهتم بكذا وكذا، فأصبح كل واحد من أهل العلم يكتب ما اهتم به في مؤلف وبدأ اسم الكتاب يظهر، ولذلك الكتب باسم كتاب كتاب فلان وكتاب فلان وكتاب فلان هذه لم تظهر بصفتها المعروفة إلا في القرن الثاني الهجري، وإنما القرن الأول كانت صحف مجموعة في موضوع واحد مثل «مغازي عروة بن الزبير» ومثل «تفسير ابن عباس» في بعض من نقل عنه وكتبه مثل عكرمة وغيره وأشبه ذلك.

وفي القرن الثاني تعددت فكتب في التفسير، وكتب في الحديث، والسنة وكتب في اللغة العربية بأنواعها وكتب كثيرة في ذلك.

ثم صارت القرآن الثالث توسعت. ثم انتشر جدا حتى أصبح في القرن الثاني هناك الآلاف من الكتب في المكتبة الإسلامية في بغداد عند هارون الرشيد رحمه الله تعالى.

هذا يعطيك الحركة السريعة خلال قرنين من الزمان بدايةً من أنه لا يوجد كتاب في الأمة إلى أن توجد كتب بالآلاف في نهاية القرن الثاني الهجري، وهذه الكتب ليست من غيرنا إنما هي كتب أنشئت من الأمة، بخلاف ما ترجم من اليونان وأمر هارون الرشيد بترجمته فإنه لا يدخل في ذلك، فالكتب التي ألفت كثيرة جدا، ومن اطلع على كتاب «الفهرس» لابن النديم المتوفى في أواسط القرن الرابع الهجري فإنه يجد المئات من أسماء الكتب، من اطلع على تراجم أهل العلم فإنه يجد أنه وكتب ويذكرون لكل عالم عشرات من الكتب في جميع الفنون.

كان هناك مما أثر في حركة الكتاب وتاريخ الكتاب في الأمة العربية: التنافس الموجود، فكان هناك أنواع من التنافس:

التنافس الأول تنافس في علوم القرآن الكريم القراءة والقراءات، كان هناك القراءة البصرية والقراءة الكوفية، وهناك القراءة المكية والمدنية والشامية إلى آخره، ابن عامر يقرأ في الشام وألفت كتب فيما يتعلق بقراءته لرصدها، وكذلك غيره، ثم جمعت هذه في قراءات متنوعة في كتب.

كذلك في تفسير تلك القراءات ألف عدد في التفسير في هذا، وتنوعت الكتب في ذلك السبيل.

التنافس بين المدارس المختلفة كان له الأثر في مد تأليف الكتاب وأيضا في صناعته، فالصراع ما بين الكوفيين والبصريين في النحو جعل كل منهم يؤلف في تفسير القرآن وفي اللغة العربية في النحو وفي العلل وغير ذلك.

كذلك في المذاهب مذهب أهل الرأي ومذهب أهل الحديث والردود بينهما؛ إذا نظرت إلى الردود التي حصلت في وسط القرن الثاني ما بين أهل الرأي وأهل الحديث، ما بين ربيعة الرأي في المدينة مع الإمام مالك بن أنس الإمام المحدث المعروف، وكذلك ما بين محمد بن الحسن وما بين أهل الحديث الردود كثيرة جدا بين ابن أبي شيبة وأبي حنيفة وأشباه ذلك من الردود.

حركة الردود الفقهية كانت من ثمراتها أنها تدون في كتب فنشط الكتاب بسبب أيضا هذا التنافس بين الفقهاء.

كذلك هناك التنافس بين أصحاب العلوم النظرية مثل علوم الهندسة والجبر والمقابلة والجغرافيا وعلم الحيوان، إلى آخره، فمن أراد أن يكتب في شيء غريب ليشتهر به ولينفع به كتب في مثل هذه العلوم إذا كان يجيدها، فلا تكاد تجد في نهاية القرن الثالث الهجري من عنده علم إلا ويدونه في كتاب.

في نهاية القرن الثالث الهجري لا تكاد تجد أحد لم يكتب كتابا وهو من أهل العلم؛ بل الكل كتب كتابا إما جزء صغير وإما الكثير.

الكتب الكبار التي هي مجلدات بدأ ظهورها في أواخر القرن الثاني الهجري كما صنف الإمام عبد الرزاق بن همام الصنعاني كتابه المصنف وهو موجود أحد عشر مجلدا، ثم تعددت الكتب ذات المجلدات الكثيرة، فالكتب ذات المجلدات الكبيرة في نهاية القرن الثاني الهجري، ثم مشت وأكثرها ما يتعلق بالقرآن وبالسنة أو في اللغة العربية كـ«العين» للخليل بن أحمد الفراهيدي وغير ذلك، فكثر الكتب المتعلقة بهذا.

في نهاية القرن الثالث الهجري أصبحت الكتب توجد ليست بالمجلدات فقط بل بعشرات المجلدات، والقصة المعروفة أن ابن جرير الطبري لما أراد كتابة التاريخ، ابن جرير توفي تقريبا سنة ٣١٠هـ وعاش ٨٦ تقريبا عاشها للعلم والكتابة، حتى إنه كما ذكر ياقوت في «معجم الأدباء» أحصى له أنه في كل يوم من عمره يكتب أربعين ورقة؛ يعني قصموا ما تركه من مؤلفات على عدد أيام عمره فوجدوا أنه يكتب أربعين صفحة يوميا، وهذا لا شك أنه عمل كبير، ابتدأت المؤلفات الكبيرة ابن جرير

في قصته المعرفة لما قال لطلابه أتنشطون لتاريخ العالم؟ ما كانوا يعتادون منه أن يقول لهم: أتنشطون؟ معناه المسألة فيها صعوبة سألوهم قالوا: قد كم؟ حتى لا يصيب الطلاب الطلاب ملل، قال: قدر ثلاثين ألف صفحة تاريخ العالم منذ خلق الله العالم يعني آدم إلى وقته هو، قال: قدر ثلاثين ألف صفحة، قالوا: هذا مما تفنى فيه الأعمار، قال: الله المستعان ماتت الهمم. فاختصره لهم في ثلاثة آلاف ورقة وهو الموجود عندنا تاريخ الطبري في ١٠ مجلدات أو أحد عشر مجلدا، وكذلك قال: مثل هذا أو قريب منه في تفسير القرآن.

بعد هذا صار هناك نشاط في التأليف في المجلدات الكبيرة.
نُقلة أخرى..

كان العلماء يحرصون على اقتناء أكثر من نسخة من الكتاب والواحد الكتاب لم يكن يكتفي العالم بنسخة واحدة من الكتاب أنا حصّلت كتاب «العين» للخليل أحمد بنسخة واحدة، كان الأكثر يأخذ أكثر من نسخة -نسختين أو ثلاثة- لأن الكتب كانت بالخط ومعلوم أن الخط يعتريه النقص ويعتريه الغلط، وهذه أمور دقيقة أمور في الشريعة وأمور في اللغة فلا بد من ضبطها، فكان العالم يحرص لسلامة علمه أن يقرأ من أكثر من نسخة ويقابل النسخ بعضها على بعض، فيأخذ نسخة قرئت على فلان من العلماء، ويأخذ نسخة ثانية قرئت على فلان من العلماء حتى يجمع بينها، إذا جاء مشكل رجع للنسخة الثانية فيصحح بعض النسخ في بعض، طبعاً لما ظهرت الطباعة النسخة واحدة، الآن مع أنه يحصل غلط في المطابع لكن النسخة واحدة يطبع منها عشرة آلاف عشرين ألف مائة ألف نسخة، سابقاً لا؛ الكاتب يكتب سنة كاملة في كتاب أو أشهر هو نسخة واحدة مخطوطة، إذا أراد أن ينقله مرة ثانية ويكتبه مرة ثانية قد يصيبه غلط في عينه في كتابته في قراءته، فكانوا يحرصون على أن يجمعوا أكثر من نسخة.

وكما قال الجاحظ فيما هو مذكور في كتابه «الحيوان» قال: لم تكن نفسي تطيب حتى أقتني من كل كتاب ثلاث نسخ. يريد أن يكون دقيقاً فيما يتلقى ودقيقاً في العلم.

وهذا يعطينا درس في هذا الزمن؛ حرص الأولين على الدقة في التلقي، ليس المسألة مسألة كثرة قراءة بقدر ما هي دقة ما تحصل عليه، فإذا هنا لابد من الاستفادة من مدرسة السابقين في أن العلم لابد له من دقة فيما تحصّل من النسخ كما سيأتي إن شاء الله في آخر الكلام في المطبوع.

أيضاً المخطوطات كانت تختلف من حيث الخط، والمخطوطات تختلف اختلافات عديدة وقيمها قيمتها المادية تختلف أيضاً بحسب المحتوى، من أي جهة من جهة أولاً الكاتب، المخطوط يكتب لكن من الذي كتبه، الناسخ من الذي نسخ هذا الكتاب، الناسخ قد يكون تاجراً ينسخ ويبيع بسرعة، فهذا يكثر فيه الغلط، وقد يكون مدقق.

ولذلك المخطوطات تختلف بحسب من نسخها، فإذا كان المخطوط بخط مؤلفه تلك الغاية، وخط المؤلف ينقسم إلى قسمين: مسودة ومبيضة، المسودة هي التي يشطب عليها يكتب يكتب، ثم بعد ذلك يشطب سطر يشطب موضوع يضيف يحشي عليها في الهوامش، ثم مبيضة. المبيضة هذه هي الصورة

النهائية لها بعد المراجعة، وهي التي يأذن العلم بقراءتها عليها ثم تنسخ في مخطوطات متعددة. فإذا أول ما يتعلق بتاريخ الكتاب نسخ الكتاب المخطوط، كما ذكرت لك لا بد معرفة من النسخ، هل هو ممن ينسخ كثيرا، أو من المتأين في النسخ، هل المؤلف نفسه، أم من تلامذة المؤلف أم من غير ذلك.

وأقدم نسخة موجودة الآن من كتب الأئمة هي نسخة كتاب «الرسالة» للإمام الشافعي بخط تلميذه الربيع بن سليمان كتبها نحو سنة ٢٥٠ للهجرة، وهي محفوظة في أحد المكاتب في مصر، وعنهما طبع الشيخ أحمد محمد أحمد شاكر «الرسالة»، لكنها موجودة بخط الربيع عن الإمام الشافعي وهو تلميذه، فهذه غاية، إذا وجد مثل هذا فهو من أنفس ما يكون. أعلى منه كتاب الإمام نفسه أو العالم نفسه لكن هذا لا يوجد في مثل تلك القرون السابقة.

النظر الثالث المهم أن يكون الكتاب مقابل، وبعض الكتب تجد أنه يكتب في آخره: (بلغ مقابلة على أصل سليم) أو يكتب: (بلغ مقابلة) فقط، وتارة يقول: (بلغ قراءة على مؤلفه)، ومرة يقول: (تم بقراءة المؤلف وهذه إجازته) يكتب تحت (إجازة المؤلف لمن قرأ هذا الكتاب) هذا الكتاب يكون الغاية، ولذلك الذين يحققون الكتب يطلعون على الكتب السليمة إذا وجدت مثل هذه النسخ فهي تسمى الأم؛ يعني النسخة الأم التي هي المرجع لأجل قوتها وسلامتها.

هناك أنواع من التحسينات على الكتب، تعلمون أن أول ما بدأ الكتاب تاريخ الإسلام لم يكن منقوطة، إنما كان الكتاب في غير نقط وبغير تشكيل؛ ليس عليه نقط ولا عليه أيضا تشكيل، فيقرأ القارئ الكتاب بحسب قدرته على القراءة، ولذلك صار هناك تصحيف كثير في القراءة، وبعضهم يقرأ من كتاب غير منقوط، غير مشكل، هو معلوماته قليلة فيخطئ في القراءة، فيحفظ خطأ فينقل خطأ إلى آخره، وهذه كثرت في القرآن الخطأ، وفي الشعر؛ لكن القرآن عولج بحفظه ونقله بالتواتر على حسب القراءات السبع أو العشر أو الأربع العشر قراءة المعروفة، وحفظت بالتواتر حتى لا يكاد أحد يخطئ في القرآن إلا ويرد الخطأ عليه لأنه محفوظ كما أخبر الله جل وعلا بأنه هو الحافظ له ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر]، حتى قال بعض أهل العلم: لو أخطأ أحد في القرآن لغلطته الصبيان. يعني صبيان المسلمين لأنه محفوظ.

وقال آخر: لا تأخذ العلم من صحفي، يعني الذي أخذ علمه بالقراءة فقط ما اتصل بالعلماء ولا لازم أهل العلم، ولم يعرف بصلته بأهل العلم؛ لأنه لا بد في القراءة توجد إشكالات، أشياء ما فهمها، فمن المعلم إذا لم يكن من علمه فلا بد هناك من يبين له الكتاب.

ولذلك قال الشاطبي في أول «الموافقات» كان العلم في صدور الرجال فأصبح في بطون الكتب بقيت مفاتيحه بأيدي الرجال. وهذا صحيح يقول هنا لا تأخذ العلم من صحفي يعني ممن قرأ في الصحف، ولا العلم من القرآن من مصحفي، واحد تقرأ عليه القرآن، تقول: أنت أخذت القرآن من أين؟ يقول: حفظته من نفسي لا تأخذ عليه من نفسي، قرأته حفظت عليه فلان في الحلقة، على شيخ، وإذا كان معاه

إجازة أفضل؛ يعني مأمون القراءة، لذلك ألف أبو هلال العسكري كتاباً لطيفاً فيه نواذر سماه «تصحيفات المحدثين»؛ يعني الأشياء التي قرئت أو كانت تقرأ غلطاً فجمعها في كتاب سماه «تصحيفات المحدثين» في ثلاث أجزاء فيه لطائف، وفيه كتاب «تصحيفات القراء»، وفيه كتاب اسمه «التصحيف والتحريف» للصفدي فيه كثير من اللطائف إذا قرأتها ترى نواذر من ذلك.

مثلاً هناك أحد من يعلم كان يدرس مادة يعني يدرس مادة من المواد الشرعية، فكان عنده في الكتاب الذي يدرسه أن النبي ﷺ (اتخذ خاتماً من ورق)، هو قرأها (من ورق)، هذا معنى التصحيف، قرأها (من ورق) جاء يشرح للذي عنده أو شرح للطلاب قالوا له: كيف من ورق؟ قال من زهده -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- يلف الورق ويجعله مثل الخاتم، لاحظ أن القراءة الخطأ أدت إلى فهم خطأ وأدت إلى تفسير خطأ واليوم كثير من المشكلات عندنا العلمية والإسلامية في فهم الدين فهم الشريعة راجعة من قراءة خطأ، ثم من تفسير خطأ، ثم من نتائج غلط.

لهذا لما جاء في قصة الخوارج مع ابن عباس ومع علي بن أبي طالب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- الخوارج من عباد من لازم الصحابة، بعضهم كان من الصحابة لكنه ارتد بعد ذلك، الذي قال فيه النبي: «ويلك من يعدل إن لم أعدل»، قال علي -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- وأرضاه: من أين أتى أولئك مع عبادتهم؟ قال: من العجمة أتوا. ماذا يقصد بالعجمة؟ يقصد أنهم لم يحسنوا قراءة القرآن والسنة ولم يحسنوا فهم العلم، فكانوا كالأعاجم في عدم فهم ما قرؤوا.

فإذن انحرفوا الانحراف الكبير لأجل عدم إحسان القراءة.

إذن الكتاب في طريقته كان مهم جداً أن يكون مضبوطاً، لذلك كان العلماء يحرصون على أن يقرأ الطالب الصغير في الابتدائي وفي المتوسط في كتب مشكولة شكلاً تاماً، كانوا يقرئون الصغار القرآن ويعلمونه معنى الحركات، يقرئون مثل «رياض الصالحين» مشكول تام بشأن يعرف ينطق بهذا اقراً بصوت عالي؛ لأنه إذا استقام لسانه وعرف معنى الحركات فإنه بعد ذلك سيحسن القراءة سيتتج عن حسن القراءة حسن الفهم حسن التطبيق.

الكتاب مرّ بمراحل كثيرة ما بين سنة ٤٠٠ هـ إلى سنة ٩٠٠ هـ، أو يعني إلى أواسط القرن التاسع الهجري، هذه المراحل هي في تأنيق الكتاب تأنيق تحسين الكتاب، فكان الكتاب يحسن من حيث الورق.

الورق كان في السابق على نوعين: ورق نباتي مصنوع من نباتات، والثاني ورق من الجلد، يسمى ورق وهو جلد جلد الغزال، وموجود كثير من الكتب محفوظة بالجلد الآن كتبت في أواسط القرن الخامس يعني ٤٥٠ ٤٧٠ مثل كتاب «الاستذكار» لابن عبد البر في قطعة منه مكتوبة بالجلد، مثل «موطأ الإمام مالك» موجود منه مثل قطعة من «صحيح البخاري»، وأشياء من ذلك موجودة. هذا نوع إما من الجلد إما من الورق النباتي.

ولذلك في اختبار الكتاب عند الخبراء، الخبراء اليوم عندهم اختبار للكتاب هل هو صحيح أو مزور

يختبرونه أولاً بالورق، يأخذ الورق وينظر كم عمر الورق، في كثير أتوا بكتب واكتشفنا أنها مزورة منسوبة إلى علماء في القرن السادس الهجري والسابع الهجري؛ لكن الورق من ١٠٠ سنة ١٥٠ سنة، ورق مخطوطات حديث من المصنع ليس تصنيع ذلك الزمن، عند أهل الخبرة كل قرن له ورق كان متداول، مثل التجارة وصناعة الورق، كان سمات للكتاب في كل قرن من حيث الورق ونوعية الورق ونوعية الكتابة والحروف وكذلك نوعية الجلد الذي يعلوه.

كان هناك التأنيق في الكتاب تارة يكتب في الصفحة الواحدة خمس أسطر فقط؛ لأجل تحرص على الجمال، تكون كل ورقة لوحة من اللوحات من جمال الخط سواء في القرآن أو في غيره. مر التأنيق التأنيق في الجلد الغلاف التأنيق في الورق في نوعية الخط في الألوان المستخدمة، تأخذ الكتاب تجد أن في الصفحة الواحدة ثلاث أربع ألوان، كتاب جميل جدا وهو بخط اليد، فيها أنواع من الجمال، في حجم الكتب.

أنفس الكتب وأقيم الكتب ما كان مشتملا على هذه المواصفات التي ذكرنا جميعا، تكون بخط معروف، بورق متأنيق محفوظا حفظا جيدا لا يوجد فيها عيوب، وأن تكون أيضا بألوان ومزخرفة، تارة يكون في الكتاب نوع من ماء الذهب، تارة الصور الملونة وما أشبه ذلك.

نسخة من «مقامات الحريري» منسوخة في القرن في أواسط القرن السادس أو في أواخر القرن السادس الهجري كبيرة ضخمة جدا مقامات الحريري كل مقامة معها صورة ملونة، محفوظ نسخة واحدة نفيسة جدا غاية في النفاسة، محفوظة في مكتبة من مكاتب أوروبا وأخذها أحد المستشرقين وصورها بتصوير يشابه المخطوط وبيعت في معرض ألمانيا السنة الماضية، وكل مقامة فيها صورة ملونة رسم أنيق ودقيق وجميل جدا.

هذا نوع من الاهتمام بالكتاب..

كتب الأدب وكتب الشعر كانت تحظى باهتمام كبير في تأنيقها؛ وذلك لأن الطالب لها في الغالب يكونون الأغنياء والأمراء والخلفاء والتجار ليتفاخروا بتحصيلهم لهذه النسخ النفيسة.

أما الكتب الشرعية فكتب التفسير يوجد منها شيء نفيس وكتب الحديث قليل جدا أما كتب الفقه فلا تكاد تجد كتابا منقولا بنفاسة إلا نادر جدا؛ لكن كتب الشعر كتب الأدب وما أشبه ذلك تجد عندها في العالم الآن نسخ كثيرة جدا من ذلك..

نختصر الوقت.. مضى الزمن حتى بدأت الطباعة، لما بدأت الطباعة كان هناك نقلة كبيرة جدا في نوعية الاهتمام بالكتاب، بدأت الطباعة كما هو معروف سنة ١٤٥٠م؛ لكن بالأحرف اللاتينية، لكن الحرف العربي أول حرف عربي ظهر ١٥١٤م في مدينة إيطاليا، وبعد ذلك في البندقية سنة ١٥٣٠م طبعت نسخة من المصحف؛ لكنها مغلوطة محرّفة وهي في إيطاليا أول نسخة طبعت في العلم ومحرّفة، كاتب الوالي الوالي العثماني كاتب رئيس الكنيسة في روما بأن هذه نسخة ونحن نطلب إتلافها فأتلّفت كل السنة ماعدا نسخة واحدة حفظت في (دير) موجودة في إيطاليا اطلعت على صورة منها وهي مطبوعة

لكنها تالفة ومغلوبة جدا.

أهم مرحلة في الطباعة سنة ١٥٩٠ هـ هذا حيث بدأت في روما مطبعة خاصة تسمى مطبعة الميدتشي عائلة كانوا يهتمون وضعوا حروفا عربية جميلة فطبعوا عددا من الكتب المهمة منها كتاب «القانون» لابن سينا وكتاب الإدريسي «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» في الجغرافيا ومنها «الآجرومية» في النحو ومنها «الكافية» لابن الحاجب ومنها «أصول إقليدس» لطاليس وبعض الكتب في هذا الصدد، حوالي ثمانية كتب طبعتها هذه المطبعة.

ومن بعد ١٦٠٠ م انتشرت الطباعة في أوروبا حتى لا تكاد تجد مدينة إلا وفيها مطبعة عربية؛ لأجل أن المستشرقين الذين يكتبون عن العالم الإسلامي والعربي لخدمة الأهداف الاستعمارية كانوا يحرصون على أن تكون بحوثهم باللغة العربية، فنشطت في أوروبا مطابع العربية كثيرا.

ولذلك نأتي لسنة ١٧٥٠ حيث بدأت بدخول المطابع إلى البلدان العربية، ثم شيئا فشيئا قصة الطباعة في الوطن العربي وتواريخها، وفي المملكة العربية السعودية كان أول مطبعة - لأجل أن الوقت الأخ أن وقت الأذان حان وأنا ورائي سفر مع الأسف - أول مطبعة وجدت في الجزيرة مطبعة في مكة المكرمة حوالي سنة ١٨٨٢ م أو ١٨٨٠ ميلادي، وطبعت كتب ثم هناك المطبعة الأميرية طبعت كتب كثيرا جدا في أول ١٣٠٠ ثم المطبعة الماجيدية وفي جدة أنشئت مطبعة وفي المدينة أنشئت مطبعة ثم في غيرها.

أهم المطابع كانت مطبعة بولاق في مصر فأنشئت حوالي سنة ١٨٣٠ م، وبدأت الطباعة في مصر بقوة ثم انتشرت المطابع وأصبح الكتاب مطبوعا.

لكن هنا سؤال مهم: وهو هل يعني أن الكتاب المطبوع معناه أنه سليم؟ ليس الأمر كذلك.

فلا بد أن نفهم من الذي صحح الكتاب هل الطابع دار النشر مدققة تدقق في التصحيح، تنقل بأمانة أم أنها تطبع للتجارة، هناك دور للتجارة هناك دور نشر تطبع فقط للتجارة، ليس عندها تدقيق علمي ولا علماء يصححون، بخلاف المطابع السابقة فكان تدقيق أكثر، ولذلك حرص طبعة العلم والحريصين على العلوم الشرعية والأدبية والتاريخية يحرصون على أن تكون الكتب محققة كتاب محقق يعني أنه مقابل على عدة نسخ ومطبوع طبعة قريبة من السليمة.

الوقت يضيق، والحديث ذو شجون، والكتاب لا يُمل..

أكرر شكري على هذه الدعوة الكريمة لوجودي بينكم وأسجل تقديري على هذا النشاط في هذا المقر التعليمي المميز، ولجميع الجهات التي أسهمت في ذلك، نسأل الله تعالى للجميع التوفيق والسداد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.